سـورة التكاثر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى : قوله تعالى ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ شغلكم. قال:

فألهيتها عَن ذِي تُمائم مُغيل

أي: شـغلكم المباهاة بكثـرة المال والعـدد عن طاعة الله، حـتى متـم ودفنتم في المقابر، وقـيل ﴿أَلْهَاكُمُ﴾ أنساكم، ﴿التَّكَاثُرُ﴾ أي من الأموال والأولاد، قـاله ابن عبـاس والحسن، وقال قـتادة: أي التفاخر بالقـبائل والعشائر [١]، وقال الضحاك: أي ألهاكم التشـاغل بالمعاش والتجارة، يقال: لهيت عن كذا بالكسر ألهى لهيا ولهيانا: إذا سلوت عنه، وتركت ذكره، وأضربت عنه، وألهاه: أي شغله، ولهاه به تلهـية، أي: عليه، والتكاثر: المكاثرة، قال مـقاتل وقتـادة وغيرهما: نزلت في اليـهود حين قالوا: نحن أكثر من بـني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، ألهاهـم ذلك حتى ماتوا ضلالا [٢]، وقال ابن زيد: نزلت في فـخذ من الأنصار، وقال ابن عـباس ومقاتـل والكلبي: نزلت في حيين من قريش: بني عبـد مناف، وبني سهم، تعادوا وتكاثروا بالسادة والأشراف في الإسـلام، فقال كل حي منهم نحن أكثر سيدا، وأعز عزيزا، وأعظم نفرا، وأكثر عائذا، فكثر بنو عبد مناف سهمًا، ثم تكاثروا بالأموات، فكثـرتهم سهم، فنزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [٣] بأحيـائكم فلم ترضوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ مفتخرين بالأمـوات، وروى سعيد عن قتادة قال: كانوا يقولون نحـن أكثر من بني فلان، ونحن أعد من بني فلان؛ وهم كل يوم يتسـاقطون إلى آخرهم، والله مازالوا كذلك حتى صـاروا من أهل القبور كلهم [٤]، وعن عمرو بن دينار: حلف أن هذه السـورة نزلت في التجار [٥]، وعن شيبـان عن قتادة قال: نزلت في أهل الكتاب [٦].

قلت: الآية تعم جمـيع ما ذكر وغيـره، وفي «صحيح» مسلم عن مطرف عن أبيـه، قال: أتيت

---

(١) صحيح : الطبري (٣٠/ ٣١٢، ٣١٣) في تفسيره .

(٢) مرسل عن قتادة : الطبري (٣٠/ ٣١٢، ٣١٣) في تفسيره ، والواحدى (ص٤٠٠) في أسباب النزول .

(٣) ضعيف : الواحدى (ص٤٠٠) في أسباب النزول ، ورواه في اللباب (ص٤٦٧) ، عن ابن بريدة وعزاه لابن أبي حاتم في تفسيره .

قلت: لكن سنده ضعيف ففي سنده صالح بن حيان وهو القرشي: ضعيف. تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤٥).

(٤) مرسل : الطبري (٣٠/ ٣١٢) في تفسيره .

(٥، ٦) مرسلان : فالآية عامة ـ والله أعلم كما ذكر المصنف .

النبي ﷺ وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: « يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا بن آدم من مالك إلا مـا أكلت فأفنيت، أو لبـست فأبليـت، أو تصدقت فـأمضـيت وما سـوى ذلك فذاهب وتاركـه للناس»[(١)]، وروى البخاري عن ابن شهاب: أخـبرني أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: « لو أن لابن آدم واديا من ذهب، لأحب أن يكون له واديان، ولن يملأ فـاه إلا التراب، ويتـوب الله على من تاب »[(٢)]، قال ثابت عن أنس عن أبي: كنا نرى هذا من القـرآن، حتى نزلت ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾[(٣)]، قال ابن العربي[(٤)]: وهذا نص صحيـح مليح، غاب عن أهل التفسـير فجهلوا وجهلـوا والحمد لله على المعرفة، وقال ابن عباس: قرأ النبي ﷺ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ قال: «تكاثر الأموال: جمعها من غير حقها، ومنعها من حقها، وشدها في الأوعية».

الثانية: قوله تعالى﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ أي حتى أتاكم الموت، فصرتم فـي المقابر زوارًا، ترجعون منها كرجوع الزائر إلى منزله من جنة أو نار، يقال لمن مـات: قد زار قبره، وقيل: أي ألهاكم التكاثر حتى عددتم الأمـوات، على ما تقدم، وقيل: هذا وعيـد، أي اشتغلتم بمفاخـرة الدنيا، حتى تزوروا القبور، فتروا ما ينزل بكم من عذاب الله عز وجل.

الثالثة: قوله تعالى﴿الْمَقَابِرَ﴾ جمع مَقْبَرة ومَقْبُرة بفتح الباء وضمها، والقبور: جمع القبر قال:

أرى أهلَ القُصُورِ إذا أُميتوا بَنَوا فوقَ المقابرِ بالصُّخُـورِ
أبوا إلا مُباهاةً وفخـــرًا على الفقراء حتى في القُبورِ

وقد جاء في الشعر: المقبر قال:

لكلِّ أناسٍ مَقبرٌ بِفنائهم فهم يَنقُصُون والقُبورُ تَزيدُ

وهو المقْبُري والمقْبَري: لأبي سعيد المقبري؛ وكـان يسكن المقابر، وقبرت الميت أقبِرهُ وأقبُرُه قبرا، أي دفنته، وأقبرته أي أمرت بأن يقبر، وقد مضى في سورة «عبس» القول فيه، والحمد لله.

الرابعة: لم يأت في التنزيل ذكـر المقابر إلا في هذه السورة، وزيارتهـا من أعظم الدواء للقلب القاسي؛ لأنها تذكر الموت والآخرة، وذلك يحمل علـى قصر الأمل، والزهد في الدنيا، وترك الرغبة فيها، قال النبي ﷺ: « كنت نهيتكم عن زيارة القبـور، فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا، وتذكر الآخرة» رواه ابن مـسعود؛ أخرجه ابـن ماجه[(٥)]، وفي «صحيح» مـسلم من حديث أبي هريرة: «فإنها تذكر الموت»[(٦)]، وفي الترمذي عن بريدة: « فإنها تذكـر الآخرة »، قال: هذا حديث حسن صحيح[(٧)]، وفيه عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ لعن زوارات القبور[(٨)]، قال: وفي الباب عن

(١) صحيح: مسلم (٢٩٥٨) في الزهد والرقائق.
(٢) صحيح: البخاري (٦٤٣٩) في الرقاق.
(٣) صحيح: البخاري (٦٤٤٠) في الرقاق.
(٤) أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٤) في أحكام القرآن.
(٥) ضعيف: ابن ماجه (١٥٧١) في الجنائز وضعفه الألباني (٤٢٧٩) في ضعيف الجامع.
(٦) صحيح: مسلم (٩٧٦) في الجنائز.
(٧) حسن صحيح: الترمذي (١٠٥٤) في الجنائز وصححه الألباني هناك.
(٨) حسن صحيح: الترمذي (١٠٥٦) في الجنائز، وصححه الألباني هناك.

ابن عباس وحسان بن ثابت، قال أبو عيسى: وهذا حديث حسن صحيح، وقد رأى بعض أهل العلم أن هذا كان قبل أن يرخص النبي ﷺ في زيارة القبور؛ فلما رخص دخل في رخصته الرجال والنساء، وقال بعضهم: إنما كره زيارة القبور للنساء لقلة صبرهن، وكثرة جزعهن.

قلت: زيارة القبور للرجال متفق عليه عند العلماء، مختلف فيه للنساء، أما الشواب فحرام عليهن الخروج، وأما القواعد فمباح لهن ذلك، وجائز لجميعهن ذلك إذا انفردن بالخروج عن الرجال؛ ولا يختلف في هذا إن شاء الله، وعلى هذا المعنى يكون قوله: « زوروا القبور » عامًا، وأما موضع أو وقت يخشى فيه الفتنة من اجتماع الرجال والنساء، فلا يحل ولا يجوز، فبينما الرجل يخرج ليعتبر، فيقع بصره على امرأة فيفتتن، وبالعكس فيرجع كل واحد من الرجال والنساء مأزورا غير مأجور، والله أعلم.

الخامسة: قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وموتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه، ولزمه ذنبه، أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه؛ فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه ران القلب، واستحكمت فيه دواعي الذنب؛ فإن مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول؛ لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير، وفي مشاهدة من احتضر، وزيارة قبر من مات من المسلمين معاينة ومشاهدة؛ فلذلك كان أبلغ من الأول؛ قال ﷺ: « ليس الخبر كالمعاينة » رواه ابن عباس [1]، فأما الاعتبار بحال المحتضرين، فغير ممكن في كل الأوقات، وقد لا يتفق لمن أراد علاج قلبه في ساعة من الساعات، وأما زيارة القبور فوجودها أسرع، والانتفاع بها أليق وأجدر، فينبغي لمن عزم على الزيارة، أن يتأدب بآدابها، ويحضر قلبه في إتيانها، ولا يكون حظه منها التطواف على الأحداث فقط؛ فإن هذه حالة تشاركه فيها بهيمة، ونعوذ بالله من ذلك، بل يقصد بزيارته وجه الله تعالى، وإصلاح فساد قلبه، أو نفع الميت بما يتلو عنده من القرآن والدعاء، ويتجنب المشي على المقابر، والجلوس عليها ويسلم إذا دخل المقابر وإذا وصل إلى قبر ميته الذي يعرفه سلم عليه أيضا، وأتاه من تلقاء وجهه، لأنه في زيارته كمخاطبته حيًا، ولو خاطبه حيًا لكان الأدب استقباله بوجهه؛ فكذلك ها هنا، ثم يعتبر بمن صار تحت التراب، وانقطع عن الأهل والأحباب، بعد أن قاد الجيوش والعساكر، ونافس الأصحاب والعشائر، وجمع الأموال والذخائر؛ فجاءه الموت في وقت لم يحتسبه، وهول لم يرتقبه، فليتأمل الزائر حال من مضى من إخوانه، ودرج من أقرانه الذين بلغوا الآمال، وجمعوا الأموال؛ كيف انقطعت آمالهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ومحا التراب محاسن وجوههم، وافترقت في القبور أجزاؤهم، وترمل من بعدهم نساؤهم، وشمل ذل اليتم أولادهم، واقتسم غيرهم طريفهم وتلادهم، وليتذكر ترددهم في المآرب، وحرصهم على نيل المطالب، وانخداعهم لمواتاة

(١) صحيح: أحمد (١/ ٢١٥، ٢٧١) في المسند، وصححه الألباني (٥٣٧٤) في صحيح الجامع، عن ابن عباس - رضي الله عنهما.

الأسباب، وركونهم إلى الصحة والشباب، وليعلم أن ميله إلى اللهو واللعب كميلهم، وغفلته عما بين يديه من الموت الفظيع، والهلاك السريع، كغفلتهم، وأنه لا بد صائر إلى مصيرهم، وليحضر بقلبه ذكر من كان مترددا في أغراضه، وكيف تهدمت رجلاه، وكان يتلذذ بالنظر إلى ما خوله وقد سالت عيناه، ويصول ببلاغة نطقه وقد أكل الدود لسانه، ويضحك لمواتاة دهره وقد أبلى التراب أسنانه، وليتحقق أن حاله كحاله، ومآله كمآله، وعند هذا التذكر والاعتبار تزول عنه جميع الأغيار الدنيوية، ويقبل على الأعمال الأخروية، فيزهد في دنياه، ويقبل على طاعة مولاه، ويلين قلبه، وتخشع جوارحه.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ قال الفراء: أي: ليس الأمر على ما أنتم عليه من التفاخر والتكاثر، والتمام على هذا ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أي سوف تعلمون عاقبة هذا ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: وعيد بعد وعيد؛ قاله مجاهد، ويحتمل أن يكون تكراره على وجه التأكيد والتغليظ؛ وهو قول الفراء، وقال ابن عباس: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما ينزل بكم من العذاب في القبر، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: في الآخرة إذا حل بكم العذاب، فالأول في القبر، والثاني في الآخرة؛ فالتكرار للحالتين، وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند المعاينة، أن ما دعوتكم إليه حق، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: عند البعث أن ما وعدتكم به صدق، وروى زر بن حبيش عن علي رضي الله عنه، قال: كنا نشك في عذاب القبر، حتى نزلت هذه السورة[1]، فأشار إلى أن قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني في القبور، وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ إذا نزل بكم الموت، وجاءتكم رسل لتنزع أرواحكم، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: إذا دخلتم قبوركم، وجاءكم منكر ونكير، وحاط بكم هول السؤال، وانقطع منكم الجواب.

قلت: فتضمنت السورة القول في عذاب القبر، وقد ذكرنا في كتاب «التذكرة» أن الإيمان به واجب، والتصديق به لازم؛ حسبما أخبر به الصادق، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره برد الحياة إليه، ويجعل له من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه؛ ليعقل ما يسأل عنه، وما يجيب به، ويفهم ما أتاه من ربه، وما أعد له في قبره، من كرامة وهوان، وهذا هو مذهب أهل السنة، والذي عليه الجماعة من أهل الملة، وقد ذكرناه هناك مستوفى، والحمد لله، وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عند النشور أنكم مبعوثون ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القيامة أنكم معذبون، وعلى هذا تضمنت أحوال القيامة من بعث وحشر، وسؤال وعرض، إلى غير ذلك من أهوالها وأفزاعها؛ حسب ما ذكرناه في «كتاب التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة»، وقال الضحاك: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يعني الكفار، «ثم كلا سوف يعلمون»: قال: المؤمنون، وكذلك كان يقرؤها[2]، الأولى بالتاء والثانية بالياء.

---

(١) ضعيف: رواه الطبري بإسنادين في أحدهما حجاج بن أرطاة وهو مدلس، وفي الآخر ابن أبي ليلى وهو سيئ الحفظ تفسير الطبري (٣٠/ ٣١٣)، وضعفه الألباني (٣٣٥٥) في سنن الترمذي كتاب التفسير (ص٧٦٢) ط ـ مكتبة المعارف ـ الرياض.

(٢) ضعيف: الطبري (٣٠/ ٣١٣) في تفسيره.

﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أعاد ﴿كَلاَّ﴾ وهو زجر وتنبيه، لأنه عقب كل واحد بشيء آخر؛ كأنه قال: لا تفعلوا، فإنكم تندمون، لا تفعلوا، فإنكم تستوجبون العقاب، وإضافة العلم إلى اليقين، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥]، وقيل: اليقين ها هنا: الموت؛ قاله قتادة[١]، وعنه أيضا: البعث؛ لأنه إذا جاء زال الشك، أي لو تعلمون علم البعث وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف؛ أي لو تعلمون اليوم من البعث ما تعلمونه إذا جاءتكم نفخة الصور، وانشقت اللحود عن جثثكم، كيف يكون حشركم؟ لشغلكم ذاك عن التكاثر بالدنيا، وقيل: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو قد تطايرت الصحف، فشقي وسعيد، وقيل: إن ﴿كَلاَّ﴾ في هذه المواضع الثلاثة بمعنى «ألا» قاله ابن أبي حاتم[٢]، وقال الفراء: هي بمعنى «حقا» وقد تقدم الكلام فيها مستوفى.

﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ هذا وعيد آخر، وهو على إضمار القسم؛ أي لترون الجحيم في الآخرة، والخطاب للكفار الذين وجبت لهم النار، وقيل: هو عام؛ كما قال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فهي للكفار دار، وللمؤمنين ممر، وفي الصحيح: «فيمر أولهم كالبرق، ثم كالريح، ثم كالطير...» الحديث،[٣] وقد مضى في سورة مريم، وقرأ الكسائي وابن عامر: «لَتُرُونَّ» بضم التاء[٤]، من أريته الشيء؛ أي تحشرون إليها فترونها، وعلى فتح التاء هي قراءة الجماعة؛ أي لترون الجحيم بأبصاركم على البعد، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ أي مشاهدة، وقيل: هو إخبار عن دوام مقامهم في النار؛ أي هي رؤية دائمة متصلة، والخطاب على هذا للكفار، وقيل: معنى ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ أي لو تعلمون اليوم في الدنيا علم اليقين فيما أمامكم، مما وصفت ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ بعيون قلوبكم؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك؛ وهو أن تتصور لك تارات القيامة، وقطع مسافاتها، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: أي عند المعاينة بعين الرأس، فتراها يقينا، لا تغيب عن عينك، ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ في موقف السؤال والعرض.

﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر؛ فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة»؟ قالا: الجوع يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده لأخرجني الذي أخرجكما قوموا» فقاموا معه؛ فأتى رجلا من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحبًا وأهلاً، فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان»؟ قالت: [ذهب] يستعذب لنا من الماء؛ إذ جاء الأنصاري،

(١) صحيح إلى قتادة: الطبري (٣٠/ ٣١٣) في تفسيره. (٢) انظر تفسير ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٤٨).
(٣) صحيح: مسلم (١٩٥/ ٣٢٩) في الإيمان، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه.
(٤) قراءة سبعية متواترة: تقريب النشر (ص١٨٩).

فنظر إلى رسول الـله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله إما أحد اليوم أكرم أضيافًا مني، قال: فانطلق، فجاءهم بعذق فيه بُسْرٌ وتمر ورطب، فقال: كلوا من هذه، وأخذ المدية فقال له رسول الله ﷺ: « إياك والحلوب» فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا؛ فلما أن شبعوا ورَوُوا، قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: « والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم، يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوع، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم »، خرجه الترمذي وقال: «هذا والذي نفسي بيده من النعيم الذي تسألون عنه يوم القيامة: ظل بارد، ورطب طيب، وماء بارد » وكنى الرجل الذي من الأنصار، فقال: أبو الهيثم بن التيهان، وذكر قصته [(١)].

قلت: اسم هذا الرجل الأنصاري مالك بن التيهان، ويكنى أبا الهيثم، وفي هذه القصة يقول عبدالله بن رواحة، يمدح بها أبا الهيثم بن التيهان:

فَلم أرَ كالإسلام عزا لأمة ... ولا مثلَ أضْياف الإراشيِّ مَعشرا
نبيٌّ وصديقٌ وفاروقَ أمةٍ ... وخيرُ بني حواءَ فرعًا وعَنصرا
فوافوا لميقات وقَدرِ قضيةٍ ... وكان قضاءُ الله قدرًا مُقدرا
إلى رجل نَجدٍ يُباري بجوده ... شُموسُ الضُّحى جودًا ومجدًا ومَفخرا
وفارسَ خلقِ اللّه في كل غارةٍ ... إذا لبسَ القومُ الحديدَ المسمرا
ففدى وحيا ثم أدنى قِراهم ... فلم يُقْرهم إلا سَمينًا مُتمرا

وقد ذكر أبو نعيم الحافظ، عن أبي عسيب مولى رسول الله ﷺ؛ قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ليلا، فدعاني فخرجت إليه، ثم مر بأبي بكر فدعاه، فخرج إليه، ثم مر بعمر فدعاه، فخرج إليه، فانطلق حتى دخل حائطا لبعض الأنصار، فقال لصاحب الحائط: « أطعمنا بسرا » فجاء بعذق، فوضعه فأكلوا، ثم دعا بماء فشرب، فقال: « لتسألن عن هذا يوم القيامة » قال: وأخذ عمر العذق، فضرب به الأرض حتى تناثر البسر نحو وجه رسول الله ﷺ ثم قال: يا رسول الله، إنا لمسؤولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: « نعم، إلا من ثلاث: كِسْرةٍ يَسُدُّ بها جوعته، أو ثوب يستر به عورته، أو جحر يأوي فيه من الحر والقر» [(٢)].

واختلف أهل التأويل في النعيم المسؤول عنه على عشرة أقوال:

أحدها: الأمن والصحة؛ قاله ابن مسعود، الثاني: الصحة والفراغ ؛ قاله سعيد بن جبير، وفي البخاري عنه عليه الصلاة والسلام: « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ » [(٣)]. الثالث: الإدراك بحواس السمع والبصر؛ قاله ابن عباس، وفي التنزيل ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦]، وفي الصحيح عن أبي هريرة وعن أبي سعيد قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتي بالعبد يوم القيامة، فيقول الله له: ألم أجعل لك سمعًا وبصرًا، ومالاً وولدًا . . . »[(٤)]،

(١) صحيح : مسلم (٢٠٣٨) في الأشربة ، والترمذي (٢٣٦٩) في الزهد .
(٢) ذكره أبو نعيم (٢/ ٢٧) في الحلية ، والحديث السابق له شاهد .
(٣) صحيح : البخاري (٦٤١٢) في الرقاق عن ابن عباس.
(٤) صحيح : وقد سبق .

الحديث، خرجه الترمذي وقال فيه: حـديث حسن صحيح، الرابع: ملاذ المأكول والمشروب قاله جابر ابن عبد الـله الأنصاري، وحديث أبي هريرة يدل عليه، الخـامس: أنه الغداء والعشاء؛ قـاله الحسن، السادس: قـول مكحول الشـامي: أنه شِبَعُ البطون وبارد الشـراب، وظلال المساكن، واعـتدال الخلق؛ ولذة النوم، ورواه زيد بن أسلم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ يعني عن شبع البطون» فذكره، ذكره الماوردي [١]، وقال: وهذا السؤال يعم الكافر والمؤمن، إلا أن سؤال المؤمن تبشـير بأن يجمع له بين نعيم الدنـيا ونعيم الآخرة، وسـؤال الكافر تقريع أن قابل نعـيم الدنيا بالكفر والمعصيـة، وقال قوم: هذا السؤال عن كل نعمة، إنما يكون فـي حق الكفار، فقد روي أن أبا بكر لما نزلت هذه الآية قال: يا رسول الله، أرأيت أكلة أكلتها مـعك في بيت أبي الهيثم بن التيهان، من خبـز شعير ولحم وبسـر قد ذنب [٢]، وماء عذب، أتخـاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقـال عليه الصلاة والسلام: « ذلك للـكفار» ؛ثم قرأ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧] ذكره القشيري أبو نصر [٣]، وقال الحسن لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار، وقال القشيري: والجمع بين الأخبار: أن الكل يسألون، ولكن سؤال الكفـار توبيخ، لأنه قد ترك الشكر، وسؤال المؤمن سؤال تشريف، لأنه شكر، وهذا النعيم في كل نعمة.

قلت: هذا القول حسن، لأن اللفظ يعم، وقد ذكر الفـريابي قال: حدثنا ورقاء بن أبي نجيح عن مجاهد، في قـوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال: كل شيء من لذة الدنيا [٤]، وروى أبو الأحوص عن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال: « إن الله تعالى ليعدد نعمه على العبد يوم القيامة، حتى يعد عليه: سـألتني فلانة أن أزوجكها، فيسمـيها باسمها، فـزوجتكها » [٥]، وفي الترمذي عن أبي هريرة قال: لما نزلت هذه الآية﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قال الناس: يا رسول الله، عن أي النعيم نسأل؟ فإنما هـما الأسودان والعدو حاضـر، وسيوفنا على عواتقنا، قـال: « إن ذلك سيكون » [٦]، وعنه قال قال رسول الـله ﷺ: « إن أول ما يسأل عنه يوم القيامة يعني العـبد أن يقال له: ألم نصح لك جسمك، ونرويك من الماء البـارد » قال: حديث غريب [٧]، وروى من حديث ابن عـمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبد من عباده، فيوقفه بين يديه، فيسأله

(١) مرسل : الماوردي (٦/ ٣٣٢) في النكت والعيون .
(٢) ذنّب : بدا فيه الإرطاب من قِبَل ذَنَبه . النهاية (٢/ ١٧٠) لابن الأثير .
(٣) كذا في تفسير القشيري (٨/ ١٠١) .
(٤) صحيح : الطبري (٣٠/ ٣١٨) في تفسيره .
(٥) ذكره الهيثمي (١٠/ ٣٤٩) في المجمع وعزاه للبزار من رواية سعيد بن مسلمة الأموى عن ليث بن أبي سليم وكلاهما ضعيف وقد وُثّقا وبقية رجاله رجال الصحيح عن ابن عمر .
وقد ذكره البيهقي (٤/ ١٤٨) في الشعب موقوفًا على عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه .
ورواه ابن فضيل الضبّي (١/ ٣٣٦) في الدعاء بسند فيه إبراهيم الهجري وهو ضعيف جدًا .
(٦) حسن بشواهده : هكذا حكم عليه الألباني في سنن الترمذي (٣٣٥٧) في التفسير . والأسودان : الماء والتمر كما في النهاية (٢/ ٩١٤) لابن الأثير .
(٧) غريب : الترمذي (٣٣٥٨) في التفسير ، وصححه الألباني هناك .

عن جاهه كمـا يسأله عن ماله » [١]، والجاه من نعيم الدنيـا لا محالة، وقال مـالك رحمه الله: إنه صحة البـدن، وطيب النفس، وهو القول السابع، وقيل: النوم مـع الأمن والعافية، وقال سـفيان بن عيينة: إن ما سـد الجوع وستر العورة من خشن الطعام واللباس، لا يسـأل عنه المرء يوم القيامة، وإنما يسأل عن النعيم، قال: والدليل عليـه أن الله تعالى أسكن آدم الجنة ، فقال له: ﴿إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨] ، فكانت هذه الأشياء الأربعة - ما يسد به الجوع ، وما يدفع به العطش، ومـا يستكن فيه من الحـر، ويستر به عورته - لآدم عليـه السلام بالإطلاق، لا حساب عليه فيها، لأنه لابد له منها.

قلت: ونحو هذا ذكره القشـيري أبو نصر، قال: إن مما لا يسأل عنه العبـد لباسا يواري سوأته، وطعاما يقيم صلبه، ومكانا يكنه من الحر والبرد.

قلت: وهذا منتزع من قوله عليه الصـلاة والسلام: « ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال: بيت يسكنه، وثوب يواري عورته، وجلف الخبز والماء » خرجه الترمذي [٢] ، وقال النضر بن شميل: جلف الخبز: ليس معه إدام ، وقال محمد بن كعب: النعيم: هو ما أنعم الله علينا بمحمد ﷺ، وفي التنزيل: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقال الحسن أيضا والمفضل: هو تخفـيف الشرائع، وتيسير القـرآن، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] ، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

قلت: وكل هذه نعم، فيسأل العبد عنها: هل شكر ذلك أم كفر، والأقوال المتقدمة أظهر. والله أعلم .

---

(١) ضعيف جـدًا : الطبراني في الأوسط والصغيـر كما في المجمع (١٠/ ٣٤٦) ، وقال : «وفـيه يوسف بن يونس أخو مسلم الأفطس وهو : ضعيف جدًا ».

(٢) ضعيف : الترمذي (٢٣٤١) في الزهد ، وضعفه الألباني (١٠٦٣) في الضعيفة .

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ ﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ أي: الدهر؛ قاله ابن عباس (١) وغيره، فالعصر مثل الدهر؛ ومنه قول الشاعر:

سَبيلُ الهوى وَعْرٌ وبحرُ الهوى غَمْرُ ... ويومُ الهوى شَهْرٌ وَشهرُ الهوى دَهْرُ

أي عصر أقسم الله به عز وجل؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع، وقيل: العصر: الليل والنهار، قال حميد بن ثور:

ولن يلبثَ العصران: يومٌ وليلةٌ ... إذا طَلَبا أن يُدركا ما تيمما

والعصران أيضا: الغداة والعشي، قال:

وأَمْطِلُهُ العَصْرينِ حتى يَملني ... ويَرضى بنصفِ الدَّين والأنفُ رَاغمُ

يقول: إذا جاءني أول النهار وعدته آخره، وقيل: إنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها؛ قاله الحسن وقتادة، ومنه قول الشاعر:

تَروَّحْ بِنا يا عمرو قد قَصُرَ العصرُ ... وفي الرَّوحةِ الأُولى الغنيمةُ والأجرُ

وعن قتادة أيضا: هو آخر ساعة من ساعات النهار، وقيل: هو قسم بصلاة العصر، وهي الوسطى؛ لأنها أفضل الصلوات؛ قاله مقاتل، يقال: أذن للعصر، أي: لصلاة العصر، وصليت العصر؛ أي: صلاة العصر، وفي الخبر الصحيح: «الصلاة الوسطى: صلاة العصر» (٢)، وقد مضى في سورة «البقرة» بيانه، وقيل: هو قسم بعصر النبي ﷺ، لفضله بتجديد النبوة فيه، وقيل: معناه ورب العصر.

الثانية: قال مالك: من حلف ألا يكلم رجلا عصرا لم يكلمه سنة، قال ابن العربي (٣): إنما حمل مالك يمين الحالف ألا يكلم امرأ عصرا على السنة؛ لأنه أكثر ما قيل فيه، وذلك على أصله في تغليظ المعنى في الأيمان، وقال الشافعي: يبر بساعة؛ إلا أن تكون له نية، وبه أقول؛ إلا أن يكون الحالف عربيا، فيقال له: ما أردت؟ فإذا فسره بما يحتمله قبل منه، وأن يكون الأقل، ويجيء على

---

(١) انظر: المحرر الوجيز (٧/ ٥٨) لابن عطية.

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٥٣٣) في التفسير، ومسلم (٦٢٧/ ٢٠٢) في المساجد ومواضع الصلاة عن علي - رضي الله عنه. وانظر الآية (٢٣٨) من سورة البقرة.

(٣) انظر: أحكام القرآن (٤/ ١٩٧٩) للقاضي ابن العربي المالكي.

مذهب مالك أن يُحمل على ما يفسر، والله أعلم.

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ ﴾

هذا جواب القسم، والمراد به الكافر؛ قاله ابن عباس في رواية أبي صالح، وروى الضحاك عنه قال: يريد جماعة من المشركين: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبدالمطلب بن أسد ابن عبد العزى، والأسود بن عبد يغوث، وقيل: يعني بالإنسان جنس الناس، ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ لفي غبن، وقال الأخفش: هلكة، الفراء: عقوبة؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾[الطلاق: ٩] . ابن زيد: لفي شر، وقيل: لفي نقص؛ والمعنى متقارب، وروي عن سلام «والعصر» بكسر الصاد، وقرأ الأعرج وطلحة وعيسى الثقفي «خُسُر» بضم السين، وروى ذلك هارون عن أبي بكر عن عاصم، والوجه فيهما الاتباع، ويقال: خُسْر وخُسُر؛ مثل عُسْر وعُسُر، وكان عليّ يقرؤها : «والعصر ونوائب الدهر، إن الإنسان لفي خسر، وإنه فيه إلى آخر الدهر»[١] ، وقال إبراهيم: إن الإنسان إذا عمر في الدنيا وهرم، لفي نقص وضعف تراجع؛ إلا المؤمنين، فإنهم تكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم؛ نظيره قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾، [التين: ٥] ، قال: وقراءتنا : «والعصر إن الإنسان لفي خسر ، وإنه في آخر الدهر»[٢] ، والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف، وقد مضى الرد في مقدمة الكتاب على من خالف مصحف عثمان، وأن هذا ليس بقرآن يتلى؛ فتأمله هناك.

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ استثناء من الإنسان؛ إذ هو بمعنى الناس على الصحيح، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي: أدوا الفرائض المفترضة عليهم؛ وهم أصحاب رسول الله ﷺ، قال أبي بن كعب: قرأت على رسول الله ﷺ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ثم قلت ما تفسيرها يا نبي الله؟ قال: «﴿وَالْعَصْرِ﴾ قسم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار»[٣] ؛ ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: أبو جهل ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أبو بكر، ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ عمر، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ عثمان ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ علي، رضي الله عنهم أجمعين، وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفا عليه، ﴿ وَتَوَاصَوْا﴾ أي: تحابوا؛ أوصى بعضهم بعضا وحث بعضهم بعضا، ﴿ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالتوحيد؛ كذا روى الضحاك عن ابن عباس، وقال قتادة: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالقرآن، وقال السدي: الحق هنا هو الله عز وجل، ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على طاعة الله عز وجل، والصبر عن معاصيه، وقد تقدم. والله أعلم .

---

(١) صححه الحاكم (٢/ ٥٨٢) في المستدرك ، وانظر: الطبري (٣٠/ ٣٢١) في تفسيره .
قلت : لكنها قراءة غير متواترة كما في تفسير ابن عطية (١٦/ ٣٦٢) .

(٢) عزاه السيوطي (٣٠/ ٦٦٧) في الدر المنثور لعبد بن حميد ، وقد أبطله المصنف .

(٣) ضعيف : علقه ابن عطية (٧/ ٥٨) في المحرر الوجيز ، وكذا قال الثعلبي (٤/ ٢٨١) في تفسيره .
قلت : وما لا سند له فهو ضعيف .

سورة الهمزة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾

قد تقدم القول في «الويل» في غير موضع، ومعناه الخزي والعذاب والهلكة. وقيل: واد في جهنم. ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ قال ابن عباس: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب (١)؛ فعلى هذا هما بمعنى، وقال النبي ﷺ: «شرار عباد الله تعالى المشاؤون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون للبرآء العيب» (٢)، وعن ابن عباس أن الهمزة: القتات، واللمزة: العياب، وقال أبو العالية والحسن ومجاهد وعطاء بن أبي رباح: الهمزة: الذي يغتاب ويطعن في وجه الرجل، واللمزة: الذي يغتابه من خلفه إذا غاب (٣)؛ ومنه قول حسان:

هَمزتُكَ فاختضعت بِذُلِّ نفسٍ بقافية تأججُ كالشُّوَاظِ

واختار هذا القول النحاس، قال: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، وقال مقاتل ضد هذا الكلام: إن الهمزة: الذي يغتاب بالغيبة، واللمزة: الذي يغتاب في الوجه، وقال قتادة ومجاهد: الهمزة: الطعان في الناس، واللمزة: الطعان في أنسابهم، وقال ابن زيد الهامز: الذي يهمز الناس بيده ويضربهم، واللمزة: الذي يلمزهم بلسانه ويعيبهم، وقال سفيان الثوري يهمز بلسانه، ويلمز بعينيه (٤)، وقال ابن كيسان: الهمزة: الذي يؤذي جلساءه بسوء اللفظ، واللمزة: الذي يكسر عينه على جليسه، ويشير بعينه ورأسه وبحاجبيه، وقال مرة: هما سواء؛ وهو القتات الطعان للمرء إذا غاب، وقال زياد الأعجم:

تُدلي بَودي إذا لاقيتني كَذِباً وإن أُغيب فأنت الهَامِزُ اللُّمزه

وقال آخر:

إذا لَقيتكَ عن شَحط تُكاشِرُني وإن تغيبتُ كنتُ الهَامِزَ اللمزه

الشحط: البعد، والهمزة: اسم وضع للمبالغة في هذا المعنى؛ كما يقال: سخرة وضحكة: للذي يسخر ويضحك بالناس، وقرأ أبو جعفر محمد بن علي والأعرج: «هُمْزة ولُمْزة» بسكون الميم فيهما، فإن صح ذلك عنهما، فهي معنى المفعول، وهو الذي يتعرض للناس حتى يهمزوه ويضحكوا

---

(١) ضعيف: فيه جهالة المحدث، عن أبي الجوزاء عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ كما في تفسير الطبري (٣٠/ ٣٢١).

(٢) حسن بمجموع الشواهد: البخاري (٣٢٣) في الأدب المفرد، وأحمد (٦/ ٤٥٩) من حديث أسماء بنت يزيد، ووثق الهيثمي رجاله كما في المجمع (٨/ ٩٣) خلا شهر بن حوشب، وقال: وقد وثقه غير واحد.

(٣، ٤) أسانيدها حسان: الطبري (٣٠/ ٣٢١، ٣٢٢) في تفسيره، وهو صحيح إلى قتادة.

وانظر: ابن عطية (٧/ ٥٩) في المحرر الوجيز.

منه، ويحملهم على الاغتيـاب، وقرأ عبدالله بن مسعود وأبو وائل والنخـعي والأعمش «ويل للهمزة اللمـزة»، وأصل الهمـز: الكسر، والعض على الـشيء بعنف؛ ومنه همز الحـرف، ويقال: همـزت رأسه، وهمزت الجوز بكفي كسرته، وقيل لأعرابي: أتهـمزون الفأرة؟ فقال: إنما تهمزها الهرة، الذي في «الصحاح»: وقـيل لأعرابي أتهمز الفـأرة؟ فقال السنور يهمزها، والأول قـاله الثعلبي، وهو يدل على أن الهر يسمى الهمزة، قال العجاج:

ومَنْ هَمَزْنا رأسَهُ تَهَشَّما

وقيل: أصل الهمـز واللمز: الدفع والضرب، لمزه يلمزه لمزًا: إذا ضربه ودفعـه، وكذلك همزه: أي دفعه وضربه، قال الراجز:

ومَنْ هَمَزْنا عِزه تَبَرْكَعا على استهِ زَوْبعة أو زَوْبعا

البركعة: القـيام على أربع، وبركعه فتبـركع؛ أي: صرعه فوقع على أسته؛ قـاله في الصحاح، والآية نزلت في الأخنس بن شـريق، فـيمـا روى الضحـاك عن ابن عبـاس[١]، وكان يلمـز الناس ويعيبهم: مقبلين ومدبرين، وقال ابن جريج: في الوليد بن المغيرة، وكان يغتاب النبي ﷺ من ورائه، ويقدح فيه في وجـهه، وقيل: نزلت في أبي بن خلف [٢]، وقيل: في جميل بن عـامر الثقفي[٣]، وقيل: إنها مرسلة على العمـوم من غير تخصيص؛ وهو قول الأكثرين، قال مـجاهد: ليست بخاصة لأحد، بل لكل من كانت هذه صفـته، وقال الفراء: يجوز أن يذكر الشيء العـام ويقصد به الخاص، قصد الواحد إذا قال: لا أزورك أبدا، فتقول: من لم يزرني فلست بزائره؛ يعني ذلك القائل.

﴿ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝ ﴾

أي أعده - زعم - لنوائب الدهر؛ مثل كـرم وأكرم، وقيل: أحصى عدده؛ قـاله السدي، وقال الضحـاك: أي أعد ماله لمن يرثه من أولاده، وقـيل: أي: فاخر بعـدده وكثرته، والمقـصود الذم على إمساك المال عن سبيل الطاعة، كما قال: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق: ٢٥]، وقال: ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ [المعارج: ١٨] وقراءة الجماعة ﴿جَمَعَ﴾ مخفف الميم، وشددها ابن عامر وحمزة والكسائي على التكثير [٤]، واختاره أبو عبيد؛ لقوله: ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾، وقرأ الحسن ونصر بن عـاصم وأبو العالية ﴿جَمَعَ﴾ مخففا، «وعَدَدَه» مخففا أيضا؛ فأظهروا التضـعيف، لأن أصله عده وهو بعيد؛ لأنه وقع في المصحف بدالين، وقد جاء مثله في الشعر؛ لما أبرزوا التضعيف خففوه، قال:

مهلا أمامة قد جَرَبتِ من خُلُقي إني أجودُ لأقوامٍ وإن ضَنِنوا

أراد: ضنوا وبخلوا، فأظهر التـضعيف؛ لكن الشعر موضع ضـرورة، قال المهدوي: من خفف

---

(١) منقطع: بين الضحاك وابن عباس الطبري (٣٠/ ٣٢٢) في تفسيره.

(٢) معضل: وذكره السيوطي (ص٤٦٨) فى اللباب مقطوعًا على ابن إسحاق، وعزاه لابن المنذر.

(٣) ضعيف: فيه جهالة المروي عنه، فقد رواه ابن أبي نجيح عن رجل من أهل الرقة فذكره، كما فى تفسير الطبرى (٣٠/ ٣٢٣).

(٤) قراءة متواترة: كما فى تقريب النشر (ص١٨٩).

﴿وعَدَّدَهُ﴾ فهو معطوف على المال؛ أي: وجمع عدده فلا يكون فعلا على إظهار التضعيف؛ لأن ذلك لا يستعمل إلا في الشعر.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝ كَلَّا لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ﴾ أي: يظن ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ أي: يبقيه حيا لا يموت؛ قاله السدي (١)، وقال عكرمة: أي يزيد في عمره (٢)، وقيل: أحياه فيما مضى، وهو ماض بمعنى المستقبل، يقال: هلك والله فلان ودخل النار؛ أي يدخل، ﴿كَلَّا﴾ رد لما توهمه الكافر؛ أي لا يخلد ولا يبقى له مال. وقد مضى القول في ﴿كَلَّا﴾ مستوفى، وقال عمر بن عبدالله مولى غفرة: إذا سمعت الله عز وجل يقول ﴿كَلَّا﴾ فإنه يقول كذبت، ﴿لَيُنۢبَذَنَّ﴾ أي ليطرحن وليلقين، وقرأ الحسن ومحمد بن كعب ونصر بن عاصم ومجاهد وحميد وابن محيصن: «لينبذان» بالتثنية، أي هو وماله، وعن الحسن أيضا «لينبذنه» على معنى لينبذن ماله، وعنه أيضا بالنون «لينبذنه» على إخبار الله تعالى عن نفسه، وأنه ينبذ صاحب المال، وعنه أيضا «لَيُنْبَذُنَّ» بضم الذال؛ على أن المراد الهمزة واللمزة والمال وجامعه.

قوله تعالى: ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ وهي نار الله؛ سميت بذلك لأنها تكسر كل ما يلقي فيها وتحطمه وتهشمه، قال الراجز:

إنا حطمنا بالقضيب مصعبا يوم كسرنا أنفه ليغضبا

وهي الطبقة السادسة من طبقات جهنم، حكاه الماوردي عن الكلبي، وحكى القشيري عنه ﴿الْحُطَمَةِ﴾ الدركة الثانية من درك النار، وقال الضحاك: وهي الدرك الرابع، ابن زيد: اسم من أسماء جهنم.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾ على التعظيم لشأنها، والتفخيم لأمرها، ثم فسرها ما هي فقال ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ أي التي أوقد عليها ألف عام، وألف عام، وألف عام؛ فهي غير خامدة؛ أعدها الله للعصاة، ﴿الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ قال محمد بن كعب: تأكل النار جميع ما في أجسادهم، حتى إذا بلغت إلى الفؤاد، خلقوا خلقا جديدا، فرجعت تأكلهم، وكذا روى خالد بن أبي عمران عن النبي ﷺ: «أن النار تأكل أهلها، حتى إذا اطلعت على أفئدتهم انتهت، ثم إذا صدروا تعود، فذلك قوله تعالى: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾» (٣)، وخص الأفئدة لأن الألم إذا صار إلى الفؤاد مات صاحبه، أي: إنه في حال من يموت وهم لا يموتون؛ كما قال الله تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤] فهم إذاً أحياء في معنى الأموات، وقيل: معنى ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ أي: تعلم مقدار ما يستحقه كل واحد منهم من العذاب؛ وذلك بما استبقاه الله تعالى من الأمارة الدالة عليه، ويقال: أطلع فلان على كذا: أي علمه، وقد قال الله تعالى: ﴿تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٧]، وقال

(١، ٢) ذكرهما ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٥١) في تفسيره.

(٣) ضعيف لإرساله: وقد وقفه ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٥١) في تفسيره على محمد بن كعب القرظي.
وذكره السيوطي (٦/ ٦٧٠) موقوفًا على ابن كعب وعزاه لعبد بن حميد، وابن أبي حاتم.

تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]، فوصفها بهذا، فلا يبعد أن توصف بالعلم.

﴿ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩ ﴾

أي: مطبقة؛ قاله الحسن والضحاك [١]، وقد تقدم في سورة «البلد» القول فيه، وقيل: مغلقة؛ بلغة قريش، يقولون: آصدت الباب إذا أغلقته؛ قاله مجاهد، ومنه قول عبيدالله بن قيس الرقيات:

إنَّ في القصرِ لو دخلنا غَزالاً مُصفقًا موصدًا عليه الحجاب

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ الفاء بمعنى الباء؛ أي: موصدة بعمد ممددة؛ قاله ابن مسعود، وهي في قراءته «بعمد ممددة» في حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ثم إن الله يبعث إليهم ملائكة بأطباق من نار، ومسامير من نار وعمد من نار، فتطبق عليهم بتلك الأطباق، وتشد عليهم بتلك المسامير، وتمد بتلك العمد، فلا يبقى فيها خلل يدخل فيه روح، ولا يخرج منه غم، وينساهم الرحمن على عرشه، ويتشاغل أهل الجنة بنعيمهم، ولا يستغيثون بعدها أبدا، وينقطع الكلام، فيكون كلامهم زفيرًا وشهيقا؛ فذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾» [٢]، وقال قتادة: ﴿عَمَدٍ﴾ يعذبون بها، واختاره الطبري، وقال ابن عباس: إن العمد الممددة أغلال في أعناقهم، وقيل: قيود في أرجلهم؛ قاله أبو صالح [٣]، وقال القشيري: والمعظم على أن العمد أوتاد الأطباق التي تطبق على أهل النار، وتشد تلك الأطباق بالأوتاد، حتى يرجع عليهم غمها وحرها، فلا يدخل عليهم روح، وقيل: أبواب النار مطبقة عليهم وهم في عمد؛ أي: في سلاسل وأغلال مطولة، وهي أحكم وأرسخ من القصيرة، وقيل: هم في عمد ممددة؛ أي: في عذابها وآلامها يضربون بها، وقيل: المعنى في دهر ممدود؛ أي: لا انقطاع له، وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم «في عُمُد» بضم العين والميم [٤]: جمع عمود، وكذلك ﴿عَمَدٍ﴾ أيضا، قال الفراء: والعَمَد: جمعان صحيحان لعمود؛ مثل أديم أَدَم وأُدُم، وأفيق وأفَق وأُفُق، أبو عبيدة: عمد: جمع عماد؛ مثل إهاب، واختار أبو عبيد ﴿عَمَدٍ﴾ بفتحتين، وكذلك أبو حاتم؛ اعتبارًا بقوله تعالى: ﴿رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وأجمعوا على فتحها، قال الجوهري: العمود: عمود البيت، وجمع القلة: أعمدة، وجمع الكثرة عُمُد، وعَمَد؛ وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾، وقال أبو عبيدة: العمود، كل مستطيل من خشب أو حديد، وهو أصل للبناء مثل: العماد، عمدت الشيء فانعمد؛ أي: أقمته بعماد يعتمد عليه، وأعمدته جعلت تحته عمدا، والله أعلم.

---

(١) ذكرهما الطبري (٣٠/ ٣٢٤، ٣٢٥) وسندهما حسن.

(٢) ضعيف: الترمذي الحكيم (٢/ ٣٥ ـ ٣٧) في نوادر الأصول.

(٣) واهٍ: أبو صالح يكذب علي ابن عباس رضى الله عنهما وانظر: ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٥١) في تفسيره.

(٤) قراءة سبعية متواترة: كما في تقريب النشر (ص١٨٩).

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تخبر؟ وقيل: ألم تعلم؟ وقال ابن عباس: ألم تسمع؟ واللفظ استفهام، والمعنى تقرير، والخطاب للنبي ﷺ، ولكنه عام؛ أي: ألم تروا ما فعلت بأصحاب الفيل؟ أي: قد رأيتم ذلك، وعرفتم موضع مِنّتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾ لا بـ ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ من معنى الاستفهام.

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيل معروف، والجمع أفيالٌ: وفُيولٌ، وفِيلةٌ، قال ابن السكيت: ولا تقل أفيلة، والأنثى فيلة وصاحبه فيال، قال سيبويه: يجوز أن يكون أصل فيل فُعلا، فكسر من أجل الياء؛ كما قالوا: أبيض وبيض، وقال الأخفش: هذا لا يكون في الواحد، إنما يكون في الجمع، ورجل فيل الرأي، أي: ضعيف الرأي، والجمع أفيال، ورجل فال؛ أي: ضعيف الرأي، مخطئ الفراسة، وقد فال الرأي يفيل فيولة، وفيل رأيه تفييلا: أي: ضعفه، فهو فيل الرأي.

الثالثة: في قصة أصحاب الفيل؛ وذلك أن أبرهة بنى القليس بصنعاء، وهي كنيسة لم ير مثلها في زمانها بشيء من الأرض، وكان نصرانيًا، ثم كتب إلى النجاشي: إني قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبْن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنته حتى أصرف إليها حج العربُ فلما تحدث العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي، غضب رجل من النَّسَأة (١)، فخرج حتى أتى الكنيسة، فقعد فيها - أي: أحدث - ثم خرج فلحق بأرضه؛ فأخبر بذلك أبرهة، فقال: من صنع هذا؟ فقيل: صنعه رجل من أهل هذا البيت، الذي تحج إليه العرب بمكة، لما سمع قولك: أصرف إليها حج العرب غضب، فجاء فقعد فيها، أي: أنها ليست لذلك بأهل، فغضب عند ذلك أبرهة، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه، وبعث رجلا كان عنده إلى بني كنانة يدعوهم إلى حج تلك الكنيسة؛ فقتلت بنو كنانة ذلك الرجل؛ فزاد أبرهة ذلك غضبًا وحنقًا، ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت، ثم سار وخرج معه بالفيل؛ وسمعت بذلك العرب، فأعظموه وفظعوا به، ورأوا جهاده حقا عليهم، حين سمعوا أنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام، فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له: ذو نفر، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله الحرام، وما يريد من هدمه وإخرابه؛ فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله، فهزم ذو نفر وأصحابه، وأخذ له ذو

---

(١) قصد بهذا من يؤخرون الشهر الحرام، فيؤخرون المحرم ليجعلوه في صفر فيحلون المحرم، وذكره المصنف عند الآية (٣٧) من سورة التوبة.

نفر فأتي به أسـيرًا؛ فلما أراد قتله، قـال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني، فإنـه عسى أن يكون بقائي معك خـيرا لك من قتلي؛ فتـركه من القتل، وحبـسه عنده في وثاق، وكان أبرهة رجلاً حليـمًا، ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك، يريد ما خرج له، حتى إذا كـان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيلتي خثعم: شهران وناهس، ومن تبعه من قبائل العرب؛ فقاتله فهزمه أبرهة، وأخذ له نفيل أسيـرا؛ فأتي به، فلما هم بقتله قـال له نفيل: أيها الملك لا تقتلني فـإني دليلك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم: شهران وناهس، بالسـمع والطاعة؛ فخلى سبيله، وخرج به معه يدله، حتى إذا مر بالطائف خرج إليـه مسعود بن معتب في رجال من ثقـيف، فقالوا له: أيها الملك، إنما نحن عبيدك؛ سامعون لك مطيـعون، ليس عندنا لك خلاف، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد - يعنون اللات - إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبـعث معك من يدلك عليه؛ فتجـاوز عنهم، وبعثوا معه أبا رغال، حتى أنزله المغمس [1] فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فرجـمت قبره العربُ؛ فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس، وفيه يقول الشاعر:

وأَرجُمُ قَبْرَهُ في كلِّ عَامٍ كرجمِ النَّاس قَبر أبي رغَالِ

فلما نزل أبرهة بالمغمس، بعث رجلا من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكة فساق إليه أمـوال أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مـائتي بعير لعبدالمطلب ابن هاشم، وهو يومـئذ كبـير قريش وسـيدها؛ فهـمت قريش وكنانة وهذيل ومن كـان بذلك الحرم بقتاله؛ ثم عـرفوا أنهم لا طاقة لهم به، فتـركوا ذلك، وبعث أبرهة حناطة الحمـيري إلى مكة، وقال له: سل عن سيـد هذا البلد وشريفـهم، ثم قل له: إن الملك يقول: إني لم آت لحـربكم، إنما جئت لهدم هذا البيت، فـإن لم تعرضوا لي بحرب، فـلا حاجة لي بدمائكم؛ فإن هو لـم يرد حربي فأتني به، فلما دخل حناطة مكة، سأل عن سيـد قريش وشريفها؛ فقيل له: عـبدالمطلب بن هاشم؛ فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة؛ فقال له عبدالمطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك منه طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، أو كما قال، فـإن يمنعه منه فهو حرمه وبيته، وإن يخل بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفع عنه، فقال له حناطة: فانطلق إليه، فإنه قد أمرني أن آتيه بك؛ فانطلق معه عـبدالمطلب، ومعه بعض بنـيه، حتى أتى العسكر؛ فـسأل عن ذي نفر، وكان صديـقا له، حتى دخل عليه وهو في محبـسه، فقال له: يا ذا نفر، هل عندك من غناء فيمـا نزل بنا؟ فقال له ذو نفر؛ وما غناء رجل أسير بيدي ملك، ينتظر أن يقتـله غدوا وعشيا ما عندي غناء في شيء مما نزل بك، إلا أن أنيسا سائس الفيل صديق لي، فسأرسل إليه، وأوصيه بك، وأعظم عليه حقك، وأسأله أن يستأذن لك على الملك، فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخير إن قـدر على ذلك؛ فقال حسبي، فبعث ذو نفر إلى أنيس، فقـال له: إن عبدالمطلب سيد قريش، وصـاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجـبال، وقد أصاب له الملك مـائتي بعير، فـاستأذن له عليه، وانفـعه عنده بما استطعت؛ فقـال: أفعل، فكلم أنيس أبرهة، فقال له: أيهـا الملك، هذا سيد قريش ببـابك، يستأذن

(١) المُغَمَّسُ: بالضم، ثم الفتح وتشديد الميم وفتحها، اسم مفعول من غمست الشيء في الماء إذ غيبته فيه، موضع قرب مكة في طريق الطائف. معجم البلدان (٥/ ١٨٨).

عليك، وهو صاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأذن له عليك، فيكلمك في حاجته، قال: فأذن له أبرهة.

وكان عبدالمطلب أوسم الناس، وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجله، وأعظمه عن أن يجلسه تحته؛ فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان، فقال: حاجتي أن يرد علي الملك مائتي بعير أصابها لي، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك، قد جئت لهدمه؟ لا تكلمني فيه، فقال له عبدالمطلب: إني أنا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه، قال: ما كان ليمتنع مني. قال: أنت وذاك، فرد عليه إبله، وانصرف عبدالمطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرز في شعف الجبال (١) والشعاب، تخوفا عليهم معرة الجيش(٢)، ثم قام عبدالمطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده، فقال عبدالمطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لا هُمَّ إن العبدَ يَمـ ـنع رَحْلَهُ فامنع حِلالك (٣)
لا يَغْلِبن صَلِيبُهُم ومحالُهُم عَدوا مِحالك (٤)
إن يدخلوا البلدَ الحرا م فأمر ما بَدا لك

يقول: أي: شيء ما بدا لك، لم تكن تفعله بنا، والحلال: جمع حل، والمحال: القوة وقيل: إن عبدالمطلب لما أخذ بحلقة باب الكعبة قال:

يا رب لا أرجو لَهم سِواكا يا ربِّ فامنع منهم حماكا
إن عدوَ البيت من عاداكا إنهم لن يقهروا قُواكا

وقال عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لا هُمَّ أخز الأسود بن مقصودِ الآخذ الهجمة (٥) فيها التقليد (٦)
بين حِراء وثبير فالبيد يَحبسها وهي أولاتُ التطريد (٧)

---

(١) شعف الجبال: قممها ورؤوسها اللسان «شعف».

(٢) معرة الجيش: النزول للأكل عند قوم بغير علمهم، والقتال دون إذن اللسان «عرر».

(٣) الحلال: بالكسر القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم. اللسان «حلل».

(٤) العدو: الاعتداء، وفي اللسان «غدا»: غدوا بالغين المعجمة، قال ابن منظور: الغدو: أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه ولم يستعمل تاما إلا في الشعر، ولم يرد عبد المطلب الغد بعينه، وإنما أراد القريب من الزمان.

(٥) الهجمة: القطعة الضخمة من الإبل، قيل: هي ما بين الثلاثين إلى المائة. وقيل: الهجمة أولها الأربعون إلى ما زادت. وقيل: غير ذلك. انظر: اللسان «هجم».

(٦) تقليد الإبل: أن يجعل في عنقها شعارًا ليعلم أنها هدى. اللسان «قلد».

(٧) حراء وثبير: جبلان بمكة، والبيد ـ جمع بيداء ـ وهي الصحراء. وتطريد الإبل: تتابعها، قال ابن منظور: بعير مطرد وهو المتتابع في سيره ولا يكبو اللسان «طرد».

فضمها إلى طماطم [١] سُود قد أجمعوا ألا يكـــونَ مَعبـــود
ويهدموا البيتَ الحرامَ المعمود والمـروتيـــن والمشـاعـــر السُّـــود
أخفره يا ربّ وأنت محمود [٢]

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبدالمطلب حلقة باب الكعبة، ثم انطلق هو ومن معه من قريش إلى شعف الجبال، فتحرزوا فيها، ينتظـرون ما أبرهة فاعل بمكة إذا دخلها، فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله، وعبأ جيشه، وكان اسم الفيل محمودا، وأبرهة مـجمع لهدم البيت، ثم الانصراف إلى اليمن، فلما وجـهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفـيل بن حبيب، حتى قام إلـى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقـال له: ابرك محـمود، وارجع راشدا من حـيث جئت، فإنك في بلـد الله الحرام، ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل، وخرج نفـيل بن حبيب يشتد، حتى أصعد في الجبل، وضـربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسـه بالطبرزين [٣] ليقوم فأبى؛ فـأدخلوا محاجن لهم [٤] في مراقه، فـبزغوه [٥] بها ليقوم، فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن، فقـام يهرول ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق، فـفعل مثل ذلك، ووجهـوه إلى مكة فبرك، وأرسل الله عليـهم طيرا من البحر، أمثال الخطاطيف والبلسان [٦]، مع كل طائر منها ثلاثة أحـجار يحملهـا: حجر في منقاره، وحـجران في رجليه، أمـثال الحمص والـعدس، لا تصيب منهم أحـدا إلا هلك؛ وليس كلهم أصابت، وخـرجوا هاربين يبتـدرون الطريق التي جاؤوا منهـا، ويسألون عن نفـيل بن حبيب، ليـدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل بن حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أين المفرُ والإلهُ الطَّالبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالب [٧]

وقال أيضا:

حمدتُ اللهَ إذ أبصـرتُ طيرا وخفْتُ حجارةً تُلقى علينا
فكلُّ القوم يسأل عـن نفيـــل كأن عليَّ للحبشَـان دَينا

فـخرجـوا يتسـاقطون بكل طريق، ويهلكـون بكل مهلك على كـل سهل، وأصـيب أبرهة في جـسده، وخرجوا به مـعهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت منه أنملة أتبعتها منه مـدة تمث قيحا ودما؛ حـتى قدمـوا به صنعاء وهو مـثل فرخ الطـائر، فمـا مات حـتى انصدع صـدره عن قلبه؛ فـيمـا يزعمون [٨].

---

(١) الطمطمة: العجمة، والطمطم والطمطمي والطماطم والطمطماني: الأعجم الذي لا يفصح. اللسان «طمم».
(٢) أخفره: أنقض عهده وذمامه: أي لا تؤمنه في حرمك. انظر: اللسان «خفر».
(٣) هي آلة من حديد.
(٤) المحاجن: جمع (محجن) وهي العصا المعوجة اللسان «حجن».
(٥) بزغوه: شرطوه ـ كما في اللسان «بزغ».
(٦) قال ابن الأثير في النهاية (١/ ١٥٢): «قال عباد بن موسى أظنها الزرازير».
(٧) الأشرم: لقب عُرف به أبرهة.
(٨) كذا في سيرة ابن هشام (١/ ٣٣ ـ ٤٠)، عن ابن إسحاق، وفيه انقطاع لكنه المعتمد في هذه القصة.

وقال الكلبي ومقاتل بن سليمان [١] يزيد أحدهما وينقص : سبب الفيل ما روي أن فتية من قريش خرجوا تجارا إلى أرض النجاشي، فنزلوا على ساحل البحر إلى بيعة للنصارى، تسميها النصاري الهيكل، فأوقدوا نارا لطعامهم وتركوها وارتحلوا؛ فهبت ريح عاصف على النار فأضرمت البيعة نارا، فاحترقت، فأتى الصريخ إلى النجاشي فأخبره، فاستشاط غضبا، فأتاه أبرهة بن الصباح وحجر بن شراحيل وأبو يكسوم الكنديون؛ وضمنوا له إحراق الكعبة وسبي مكة، وكان النجاشي هو الملك، وأبرهة صاحب الجيش، وأبو يكسوم نديم الملك، وقيل: وزيره، وحجر بن شراحيل من قواده، وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهة بن الصباح، فساروا ومعهم الفيل، قال الأكثرون: هو فيل واحد، وقال الضحاك: هي ثمانية فيلة، ونزلوا بذي المجاز، واستاقوا سرح مكة، وفيها إبل عبدالمطلب، وأتى الراعي نذيرا، فصعد الصفا، فصاح: واصباحاه ثم أخبر الناس بمجيء الجيش والفيل، فخرج عبدالمطلب، وتوجه إلى أبرهة، وسأله في إبله.

واختلف في النجاشي، هل كان معهم؟ فقال قوم : كان معهم ، وقال الأكثرون: لم يكن معهم.

وبصر أهل مكة بالطير قد أقبلت من ناحية البحر؛ فقال عبدالمطلب: إن هذه الطير غريبة بأرضنا، وما هي بنجدية ولا تهامية ولا حجازية وإنها أشباه اليعاسيب [٢]، وكان في مناقيرها وأرجلها حجارة؛ فلما أطلت على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا، قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشية؛ فباتت ثم صبحتهم بالغداة فرمتهم، وقال الكلبي: في مناقيرها حصى كحصى الخذف، أمام كل فرقة طائر يقودها، أحمر المنقار، أسود الرأس، طويل العنق، فلما جاءت عسكر القوم وتوافت، أهالت ما في مناقيرها على من تحتها، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه المقتول به، وقيل: كان على كل حجر مكتوب: من أطاع الله نجا، ومن عصاه غوى، ثم انصاعت [٣] راجعة من حيث جاءت، وقال العوفي: سألت عنها أبا سعيد الخدري، فقال: حمام مكة منها، وقيل: كان يقع الحجر على بيضة [٤] أحدهم فيخرقها، ويقع في دماغه، ويخرق الفيل والدابة، ويغيب الحجر في الأرض من شدة وقعه.

وكان أصحاب الفيل ستين ألفا، لم يرجع منهم أحد ألا أميرهم، رجع ومعه شرذمة لطيفة، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا، وقال الواقدي: أبرهة جد النجاشي الذي كان في زمان رسول الله ﷺ،

---

(١) هذه الرواية فيها من المبالغات ما فيها كقوله :
(كل حجر مكتوب : من أطاع الله نجا ، ومن عصاه غوى).
(وأن حمام البيت أصله عن هذه الطير).
(وتحديد أسماء القواد أيضًا فيه شك كبير).
(ومسألة احتراق الكنيسة) ، والكلبى كذاب ، ومقاتل حاله من الضعف معلومة !! انظر دراستنا صحيح قصص القرآن) ـ ط ـ دار الحديث .

(٢) يعاسيب: جمع اليعسوب: الأمير أو ذكر النحل اللسان «عسب».

(٣) انصاعت : أطاعت اللسان «صوع ».

(٤) البيضة : الخوذة اللسان «بيض».

وأبرهة هو الأشرم، سمي بذلك لأنه تفاتن [١] مع أرياط، حتى تزاحفا، ثم اتفقا على أن يلتقيا بشخصيهما، فمن غلب فله الأمر، فتبارزا وكان أرياط جسيما عظيما، في يده حربة، وأبرهة قصيرا حادرا حليمًا ذا دين في النصرانية، ومع أبرهة وزير له يقال له عتودة، فلما دنوا ضرب أرياط بحربته رأس أبرهة، فوقعت على جبينه، فشرمت عينه وأنفه وجبينه وشفته؛ فلذلك سمي الأشرم، وحمل عتودة على أرياط فقتله، فاجتمعت الحبشة لأبرهة؛ فغضب النجاشي، وحلف ليحزن ناصية أبرهة، ويطأن بلاده، فجز أبرهة ناصيته وملأ مزودا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشي، وقال: إنما كان عبدك، وأنا عبدك، وأنا أقوم بأمر الحبشة، وقد جززت ناصيتي، وبعثت إليك بتراب أرضي، لتطأه وتبر في يمينك؛ فرضي عنه النجاشي، ثم بنى أبرهة كنيسة بصنعاء، ليصرف إليها حج العرب؛ على ما تقدم [٢].

الرابعة: قال مقاتل: كان عام الفيل قبل مولد النبي ﷺ بأربعين سنة [٣]، وقال الكلبي وعبيد ابن عمير: كان قبل مولد النبي ﷺ بثلاث وعشرين سنة [٤]، والصحيح ما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ولدت عام الفيل»، وروي عنه أنه قال: « يوم الفيل » [٥]، حكاه الماوردي في التفسير له، وقال في كتاب أعلام النبوة: ولد رسول الله ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، وكان بعد الفيل بخمسين يوما، ووافق من شهور الروم العشرين من أشباط، في السنة الثانية عشرة من ملك هرمز بن أنوشروان، قال: وحكى أبو جعفر الطبري أن مولد النبي ﷺ كان لاثنتين وأربعين سنة من ملك أنوشروان، وقد قيل: إنه عليه الصلاة والسلام حملت به أمه آمنة في يوم عاشوراء من المحرم، وولد يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان؛ فكانت مدة حمله ثمانية أشهر كملا ويومين من التاسع، وقيل: إنه ولد يوم عاشوراء من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص، في «فضائل يوم عاشوراء» له، ابن العربي: قال ابن وهب عن مالك: ولد رسول الله ﷺ عام الفيل، وقال قيس بن مخرمة: ولدت أنا ورسول الله ﷺ عام الفيل [٦]، وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألا يخبر بسنه؛ لأنه إن كان صغيرا استحقروه وإن كان كبيرا استهرموه، وهذا قول ضعيف؛ لأن مالكا لا يخبر بسن رسول الله ﷺ ويكتم سنه؛ وهو من أعظم العلماء قدوة به، فلا بأس بأن يخبر الرجل بسنه كان كبيرا أو صغيرا، وقال عبدالملك بن مروان لقباث بن أشيم: أنت أكبر أم النبي ﷺ؟ فقال: النبي ﷺ أكبر مني، وأنا أسن منه؛ ولد النبي ﷺ عام الفيل، وأنا أدركت

---

(١) أي: تقاتلا.

(٢) اللسان «فتن» والخبر عند ابن هشام عن ابن إسحاق كما فى السيرة النبوية (١/ ٣١، ٣٢)، والواقدى متروك.

(٣) هذا كذب، والمشهور مولده عليه السلام فى عام الفيل.

(٤) وهو كذب كسابقه.

(٥) بل الصحيح ما رواه ابن عباس أنه قال: (ولد رسول الله ﷺ يوم الفيل).
وانظر: تفسير الماوردى (٦/ ٣٤٤).
قلت: ولا يصح أى خبر بعد ذلك من ميلاده إلا فى الثاني عشر من ربيع الأول كما جاء فى بعض الروايات بحمد الله.

(٦) **ضعيف**: الترمذي (٣٦١٩) فى المناقب وضعفه الألبانى هناك.

سائسه وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس [١]، وقيل لبعض القضاة: كم سنك؟ قال: سن عتاب بن أسيد حين ولاه النبي ﷺ مكة، وكان سنه يومئذ دون العشرين.

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصة الفيل فيما بعد من معجزات النبي ﷺ وإن كانت قبله وقبل التحدي؛ لأنها كانت توكيدا لأمره، وتمهيداً لشأنه، ولما تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكة عدد كثير ممن شهد تلك الوقعة؛ ولهذا قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ولم يكن بمكة أحد إلا وقد رأى قائد الفيل وسائقه أعميين يتكففان الناس، وقالت عائشة رضي الله عنها مع حداثة سنها: لقد رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين يستطعمان الناس [٢]، وقال أبو صالح: رأيت في بيت أم هانئ بنت أبي طالب نحواً من قفيزين من تلك الحجارة، سودا مخططة بحمرة.

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ ﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطال وتضييع؛ لأنهم أرادوا أن يكيدوا قريشا بالقتل والسبي، والبيت بالتخريب والهدم، فحكي عن عبد المطلب أنه بعث ابنه عبد الله على فرس له، ينظر ما لقوا من تلك الطير، فإذا القوم مشرخون جميعا، فرجع يركض فرسه، كاشفا عن فخذه، فلما رأى ذلك أبوه قال: إن ابني هذا أفرس العرب، وما كشف عن فخذه إلا بشيرا أو نذيرا، فلما دنا من ناديهم بحيث يسمعهم الصوت، قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعا، فخرج عبد المطلب وأصحابه، فأخذوا أموالهم، وكانت أموال بني عبد المطلب منها، وبها تكاملت رياسة عبد المطلب؛ لأنه احتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم خرج أهل مكة بعده ونهبوا، وقيل: إن عبد المطلب حفر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعود الثقفي وكان خليلا لعبد المطلب: اختر أيهما شئت، ثم أصاب الناس من أموالهم حتى ضاقوا ذرعًا، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنت منعت الحبش والأفيالا وقد رعوا بمكة الأجبالا
وقد خشينا منهم القتالا وكلَّ أمر لهم معضالا
شكرًا وحمدًا لك ذا الجلالا

قال ابن إسحاق: ولما رد الله الحبشة عن مكة عظمت العرب قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم، في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربنا لم تدنس أنت حبستَ الفيلَ بالمغمسِ
من بعد ما هم بشرٌ مُبلس حبسته في هيئةِ المكركسِ
ومَا لَهم مِن فرج ومنفسِ

والمكركس: المنكوس المطروح.

(١، ٢) رواه البزار بإسناد رجاله ثقات كما في المجمع (٣/ ٢٨٥)، لكن من قول عائشة رضى الله عنها. وصرح ابن إسحاق بالتحديث فيه كما في السيرة النبوية (١/ ١٧٦) لابن هشام.

﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ ﴾

قال سعيد بن جبير: كانت طيرا من السماء لم ير قبلها، ولا بعدها مثلها، وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنها طير بين السماء والأرض تعشش وتفرخ » [١]، وعن ابن عباس: كانت لها خراطيم كخراطيم الطير، وأكف كأكف الكلاب، وقال عكرمة: كانت طيرا خضرا، خرجت من البحر، لها رؤوس كرؤوس السباع، ولم تر قبل ذلك ولا بعده، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي أشبه شيء بالخطاطيف، وقيل: بل كانت أشباه الوطاويط، حمراء وسوداء، وعن سعيد بن جبير أيضا: هي طير خضر لها مناقير صفر، وقيل: كانت بيضا، وقال محمد بن كعب: هي طير سود بحرية، في مناقيرها وأظفارها الحجارة، وقيل: إنها العنقاء المُغرِب التي تضرب بها الأمثال [٢]؛ قال عكرمة: ﴿أَبَابِيلَ﴾ أي: مجتمعة، وقيل: متتابعة، بعضها في إثر بعض؛ قاله ابن عباس ومجاهد، وقيل مختلفة متفرقة، تجيء من كل ناحية من ها هنا وها هنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش، قال النحاس: وهذه الأقوال متفقة، وحقيقة المعنى: أنها جماعات عظام، يقال: فلان يؤبل على فلان؛ أي: يعظم عليه ويكثر؛ وهو مشتق من الإبل، واختلف في واحد أبابيل؛ فقال الجوهري: قال الأخفش يقال: جاءت إبلك أبابيل؛ أي: فرقا، وطيرا أبابيل، قال: وهذا يجيء في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحد له، وقال بعضهم: واحده أبول، مثل عجول، وقال بعضهم: إبيل مثل سكين، قال: ولم أجد العرب تعرف له واحدا في غير «الصحاح»، وقيل في واحده إبال، وقال رؤبة بن العجاج في الجمع:

ولعبتْ طيرٌ بهم أبابيلْ فصيروا مثلَ كعصفٍ مَأكُول

وقال الأعشى:

طَريقٌ وجَبّارٌ رواء أصولُهُ عليه أبابيل مِن الطَّيرِ تَنْعب

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ مِنَ الأصواتِ رَاحلتي إذ سالت الأرضُ بالجُرد الأبابيل

وقال آخر:

تراهُم إلى الداعي سِرَاعا كأنهم أبابيلُ طيرٍ تحت دَجْن مُسجن

قال الفراء: لا واحد له من لفظه، وزعم الرؤاسي - وكان ثقة - أنه سمع في واحدها «إبَّالة» مشددة، وحكى الفراء «إبَالة» مخففا، قال: وسمعت بعض العرب يقول: ضغث على إبالة، يريد: خصبا على خصب، قال: ولو قال قائل إيبالة كان صوابا؛ مثل دينار ودنانير، وقال إسحاق بن عبدالله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذ من الإبل المؤبلة؛ وهي الأقاطيع.

---

(١) موضوع: جويبر متروك، والضحاك لم يلق ابن عباس رضى الله عنهما، وانظر: روح المعاني (٩/ ٤٥٨) للآلوسي.

(٢) هذه كلها آثار لا نقف لها على سند تاريخي صحيح، فالذين روَوْها لم يشهدوا القصة ولا قالوا عمن رووها وعتقاء المغرب: طائر عظيم يبعد فى طيرانه، ولعلها من الخرافات كما فى اللسان «غرب».
وانظر الطبري (٣٠/ ٣٢٨، ٣٢٩) وفى الروايات مبالغات واضحتان.

﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ ﴾

في الصحاح ﴿حِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ قالوا: حجارة من طين، طبخت بنار جهنم، مكتوب فيها أسماء القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ۝٣٣ مُّسَوَّمَةً﴾ [الذاريات: ٣٣]، وقال عبدالرحمن ابن أبزى: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾: من السماء، وهي الحجارة التي نزلت على قوم لوط، وقيل: من الجحيم، وهي ﴿سِجِّينٍ﴾ ثم أبدلت اللام نونًا؛ كما قالوا في أصيلان: أصيلال، قال ابن مقبل:

ضَرْبًا تواصَت به الأبطالُ سجينا

وإنما هو سجيلا، وقال الزجاج: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي: مما كتب عليهم أن يعذبوا به؛ مشتق من السجل، وقد مضى القول في سجيل في «هود» مستوفى[1]، قال عكرمة: كانت ترميهم بحجارة معها، فإذا أصاب أحدهم حجر منها خرج به الجدري لم ير قبل ذلك اليوم، وكان الحجر كالحمصة وفوق العدسة، وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نفط جلده، فكان ذلك أول الجدري[2]، وقراءة العامة: ﴿تَرْمِيهِم﴾ بالتاء، لتأنيث جماعة الطير، وقرأ الأعرج وطلحة «يرميهم» بالياء؛ أي: يرميهم الله؛ دليله قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] ويجوز أن يكون راجعا إلى الطير، لخلوها من علامات التأنيث، ولأن تأنيثها غير حقيقي.

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥ ﴾

أي: جعل الله أصحاب الفيل كورق الزرع إذا أكلته الدواب، فرمت به من أسفل، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزائه، روى معناه عن ابن زيد وغيره، وقد مضى القول في العصف في سورة «الرحمن»[3] ومما يدل على أنه ورق الزرع قول علقمة:

تسقي مذانب قد مالت عَصِيفَتُها ... حدورها من أتى الماء مَطْمُوم

وقال رؤبة بن العجاج:

ومَسَّهُم ما مَسَّ أصحابَ الفيلِ ... ترميهم حجارةٌ من سجيل

ولَعِبت طيرٌ بهم أبابيل فصيروا ... مثل كعصفٍ مَأكول

العصف: جمع، واحدته عصفة وعصافة، وعصيفة، وأدخل الكاف في ﴿كَعَصْفٍ﴾ للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ومعنى ﴿مَّأْكُولٍ﴾ حبه، كما يقال: فلان حسن؛ أي: حسن وجهه، وقال ابن عباس ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أن المراد به قشر البر؛ يعني

---

(١) عند الآية (٨٢).

(٢) هذا كلام على كثرة تكراره كما ذكره ابن كثير (٨/ ٣٨١)، وغيره إلا أن القرآن صرّح أنه ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ أي كورق التبن ولا تفاصيل أخرى، وإن كان حدوث الجدرى على وزن ما يعرف الآن بـ (الحرب الجرثومية) غير مستحيل عقلاً، لكن القرآن لم يصرح به، ولا ذكره النبي ﷺ ثم الآية صريحة ـ كما ذكرنا ـ فى هلاكهم والنعت هنا فيه ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾، والفاء تفيد التعقيب لا الانفصال، مما يعني هلاك من تقع عليه كما حدث مع ثمود وعاد وقوم لوط، أما الميكروب فيحتاج لفترة حضانة، ومقاومة وغيرها، والله أعلم.

(٣) عند الآية (٨٢).

الغلاف الذي تكون فيه حبة القمح، ويروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيخرج كل ما في جوفه، فيبقى كقشر الحنطة إذا خرجت منه الحبة، وقال ابن مسعود: لما رمت الطير بالحجارة، بعث الله ريحا فضربت الحجارة فزادتها شدة، فكانت لا تقع على أحد إلا هلك، ولم يسلم منهم إلا رجل من كندة؛ فقال:

فَإنك لو رأيت ولم تَريـــه لدى جنب المُغمس مَا لقينا
خشيتُ الله إذ قد بثَّ طَيرا وظل سحابةً مَرت عَلينـــا
وباتت كُلها تدعـــو بحـقٍّ كأن لها على الحُبشان دَينـا

ويروى أنها لم تصبهم كلهم، لكنها أصابت من شاء الله منهم، وقد تقدم أن أميرهم رجع وشرذمة لطيفة معه، فلما أخبروا بما رأوا هلكوا، فالله أعلم، وقال ابن إسحاق: لما رد الله الحبشة عن مكة، عظمت العرب قريشا وقالوا: أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم، فكان ذلك نعمة من الله عليهم (١).

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٠، ٤١).

سـورة قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ ۝ ﴾

قيل: إن هذه السورة متصلة بالتي قبلها في المعنى، يقول: أهلكت أصحاب الفيل لإيلاف قريش؛ أي: لتأتلف قريش، أو لتتفق قريش، أو لكي تأمن قريش فتؤلف رحلتيها، وممن عد السورتين واحدة أبي بن كعب، ولا فصل بينهما في مصحفه، وقال سفيان بن عيينة: كان لنا إمام لا يفصل بينهما، ويقرؤهما معا، وقال عمرو بن ميمون الأودي: صلينا المغرب خلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ فقرأ في الأولى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١] وفي الثانية ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ [الفيل: ١] و﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [قريش: ١]، وقال الفراء [(١)]: هذه السورة متصلة بالسورة الأولى؛ لأنه ذكر أهل مكة عظيم نعمته عليهم فيما فعل بالحبشة، ثم قال: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ أي: فعلنا ذلك بأصحاب الفيل نعمة منا على قريش، وذلك أن قريشا كانت تخرج في تجارتها، فلا يُغار عليها ولا تُقرب في الجاهلية، يقولون هم أهل بيت الله جل وعز؛ حتى جاء صاحب الفيل ليهدم الكعبة، ويأخذ حجارتها، فيبني بها بيتا في اليمن يحج الناس إليه، فأهلكهم الله عز وجل، فذكرهم نعمته، أي: فجعل الله ذلك لإيلاف قريش، أي: ليألفوا الخروج ولا يجترأ عليهم؛ وهو معنى قول مجاهد وابن عباس في رواية سعيد بن جبير عنه [(٢)]، وذكره النحاس: حدثنا أحمد بن شعيب قال أخبرني عمرو بن علي قال: حدثني عامر بن إبراهيم - وكان ثقة من خيار الناس - قال حدثني خطاب بن جعفر بن أبي المغيرة، قال: حدثني أبي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ قال: نعمتي على قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف، قال: كانوا يشتون بمكة، ويصيفون بالطائف [(٣)]، وعلى هذا القول يجوز الوقف على رؤوس الآي وإن لم يكن الكلام تامًا؛ على ما نبينه أثناء السورة، وقيل: ليست بمتصلة؛ لأن بين السورتين «بسم الله الرحمن الرحيم» وذلك دليل على انقضاء السورة وافتتاح الأخرى، وأن اللام متعلقة بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾ أي: فليعبدوا هؤلاء رب هذا البيت، لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف للامتيار، وكذا قال الخليل: ليست متصلة؛ كأنه قال: ألَّف الله قريشا إيلافا فليعبدوا رب هذا البيت، وعمل ما بعد الفاء فيما قبلها لأنها زائدة غير عاطفة؛ كقولك: زيدا فاضرب، وقيل: اللام في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَـٰفِ قُرَيْشٍ﴾ لام التعجب؛ أي: اعجبوا لإيلاف قريش [رحلة الشتاء والصيف، وتركهم عبادة رب هذا البيت]؛ قاله الكسائي والأخفش، وقيل: بمعنى إلى،

---

(١) انظر: معاني القرآن (٣/ ٢٩٣) للفراء، والبغوي (٨/ ٥٤٣) في تفسيره.

(٢، ٣) ذكر الطبري (٣٠/ ٣٣٧) في تفسيره، قول مجاهد هذا، وبنحوه عن ابن عباس، من طريق سعيد بن جبير.

وقرأ ابن عامـر: «لإلاف قريش» مهموزًا مـختلسًا بلا ياء [١]، وقرأ أبو جعفـر والأعرج «ليلاف» بلا همز طلبا للخفة، الباقون: ﴿لإيلاف﴾ بالياء مهموزًا مشبعًا؛ من آلفت أولف إيلافا، قال الشاعر:

المُنعمينَ إذا النجومُ تَغيرت والظَّاعنين لرحلةِ الإيلاف

ويقال: ألفته إلفًا وإلافًا، وقرأ أبو جعفر أيضا: «لإلف قريش» وقد جمعهما من قال:

زعمتم أن إخوتكُم قُريشُ لهم إلفٌ وليس لكم إلاف

قال الجوهـري: وفلان قد ألف هذا الموضع بالكسر يألف إلفـا، وآلفه إياه غيره، ويقـال أيضًا: آلفت الموضع أولفه إيلافا، وكذلك: آلفت الموضع أؤالفه مؤالفة وإلافا؛ فصار صورة أفعل وفاعل في الماضي واحدة، وقرأ عكرمة: «ليألف» بفتح اللام على الأمـر، وكذلك هو في مصحف ابن مسعود، وفتح لام الأمر لغـة حكاها ابن مجاهد وغيره، وكان عكرمـة يعيب على من يقرأ ﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ﴾، وقرأ بعض أهل مكة «إلاف قريش» واستشهد بقول أبي طالب يوصي أخاه أبا لهب برسول الله ﷺ:

فلا تتركنه ما حييتَ لُمعظـم وكن رَجلا ذا نَجـدة وعَفَاف

تَذود العِدا عن عُصبة هاشمية إلافهم في النَّاس خَيرُ إلافَ

وأما قريش فهم بـنو النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مـضر، فكل من كان من ولد النضر فهو قرشي دون بني كنانة ومن فوقه، وربما قالوا: قريشي، وهو القياس؛ قال الشاعر:

بكل قُريشي عليه مَهَابةٌ

فإن أردت بقريش الحي صرفته، وإن أردت به القبيلة لم تصرفه؛ قال الشاعر:

وكَفَى قُريش المعضلات وسادها

والتقريش: الاكتساب، وتقرشوا أي: تجمعوا، وقد كانوا متفرقين في غير الحرم، فجمعهم قصي ابن كلاب في الحرم، حتى اتخذوه مسكنا، قال الشاعر:

أبونا قُصيٌّ كان يُدعي مُجمعا به جَمَّعَ اللهُ القَبائلَ من فِهر

وقد قيل: إن قريشـا بنو فهر بن مالك بن النضر، فكل من لم يلده فـهر فليس بقرشي، والأول أصح وأثبت، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: « إنا ولد النضر بن كنانة لا نقفو أُمنا، ولا ننتفي من أبينا » [٢]، وقـال واثلة بن الأسقع: قـال النبي ﷺ: « إن الله اصطفى كنانة من ولد إسـماعـيل، واصطفى من بني كنانة قـريشا، واصطفى مـن قريش بني هاشم، واصطفـاني من بني هاشم » [٣]، صحيح ثابت، خرجه البخاري ومسلم وغيرهمـا، واختلف في تسميتهم قريشا على أقوال: أحدها: لتجمعهم بعد التفرق، والتقرش: التجمع والالتئام، قال أبو جلدة اليشكري:

إخوةٌ قَرشوا الذُّنوبَ علينا في حَديثٍ من دَهْرهم وقَديم

---

(١) قراءتان متواترتان: كما في تقريب النشر (ص١٨٩).

(٢) حسن: ابن ماجه (٢٦١٢) في الحدود عن الأشعث بن قيس وحسنه الألباني هناك.

وقوله: لانقفوا: لا نتـهم، ولا نقذف، وقيل: لا نقذفها بما ليس فيـها، وقيل: لا نترك النسب إلى الآباء وتنتسب إلى الأمهات كما في النهاية (٤/ ٩٥) لابن الأثير.

(٣) صحيح: مسلم (٢٢٧٦/ ١) في الفضائل، عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه، وليس عند البخاري كما وهم المصنف ـ رحمه الله.

الثاني: لأنهم كانوا تجارا يأكلون من مكاسبهم، والتقرش: التكسب، وقد قرش يقرش قرشا: إذا كسب وجمع، قال الفراء: وبه سميت قريش، الثالث: لأنهم كانوا يفتشون الحاج [1] عن ذي الخلة [2]، فيسدون خلته، والقرش: التفتيش، قال الشاعر:

أيُّها الشَّامتُ المُقرشُ عنا عند عمرو فهل له إبقَاءُ

الرابع [3]: ما روي أن معاوية سأل ابن عباس لم سميت قريش قريشا؟ فقال: لدابة في البحر من أقوى دوابه يقال لها القرش؛ تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلى، وأنشد قول تبع:

قريش هي التي تَسكنُ البحـ ـرَ بها سميت قُريش قُريشا
تأكل الغثَّ والسمينَ ولا تتـ رك فيها لذي جناحين ريشا
هكذا في البِلاد حيٌّ قُريشٍ يأكلونَ البِلادَ أكلا كَميشا
ولهم آخرَ الزمان نبـي يكثر القَتل فيهم والخَموشا

﴿ إِۦلَـٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ ﴾

قرأ مجاهد وحميد: «إلْفهم» ساكنة اللام بغير ياء، وروي نحوه عن ابن كثير، وكذلك روت أسماء أنها سمعت رسول الله ﷺ يقرأ «إلفهم» [4]، وروي عن ابن عباس وغيره، وقرأ أبو جعفر والوليد عن أهل الشام وأبو حيوة: «إلافِهم» مهموزا مختلسا بلا ياء [5]، وقرأ أبو بكر عن عاصم «إئلافهم» بهمزتين، الأولى مكسورة والثانية ساكنة، والجمع بين الهمزتين في الكلمتين شاذ، الباقون ﴿إِيلافِهِمْ﴾ بالمد والهمز؛ وهو الاختيار، وهو بدل من الإيلاف الأول للبيان، وهو مصدر آلف: إذا جعلته يألفه، وألف هو إلفا؛ على ما تقدم ذكره من القراءة؛ أي: وما قد ألفوه من رحلة الشتاء والصيف.

وروى ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ قال: لا يشق عليهم رحلة شتاء ولا صيف، مِنةً منهُ على قريش، وقال الهروي وغيره: وكان أصحاب الإيلاف أربعة إخوة: هاشم، وعبد شمس، والمطلب، ونوفل؛ بنو عبد مناف، فأما هاشم فإنه كان يؤلف ملك الشام؛ أي: أخذ منه حبلا وعهدا يأمن به في تجارته إلى الشام، وأخوه عبد شمس كان يؤلف إلى الحبشة، والمطلب إلى اليمن، ونوفل إلى فارس، ومعنى يؤلف يجير، فكان هؤلاء الإخوة يسمون المجيرين، فكان تجار قريش يختلفون إلى الأمصار بحبل هؤلاء الإخوة، فلا يتعرض لهم، قال

---

(١) الحاج: الحجاج، أى: يبحثون عن أحوالهم. اللسان «حجج».

(٢) الخلة: الحاجة والفقر. اللسان «خلل».

(٣) ذكره ابن كثير (٢/ ٢٠٢) فى البداية وعزاه للبيهقي، وكذا عزاه السيوطي (٦/ ٦٨٠) للبيهقي في الدلائل.

(٤) ضعيف: فيه شهر بن حوشب وهو مختلف فيه، وليث بن أبي سليم وهو مختلط ومدلس جدًا، وفيه من طريق الطبري محمد بن حميد وهو متهم بالكذب، وانظر: الطبري (٣٠/ ٣٣٦) فى تفسيره، والحاكم (٣٠١٤) فى مستدركه.

(٥) قراءة متواترة: كما فى تقريب النشر (ص١٨٩).

الأزهري: الإيلاف: شبه الإجارة بالخفارة [١]؛ يقال: آلف يؤلف: إذا أجار الحمائل بالخفارة، والحمائل: جمع حمولة [٢]، قال: والتأويل: أن قريشًا كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع ولا ضرع، وكانوا يميرون في الشتاء والصيف آمنين، والناس يُتَخطفون من حولهم، فكانوا إذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله، فلا يتعرض الناس لهم، وذكر أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا في تفسيره: حدثنا سعيد بن محمد، عن بكر بن سهل الدمياطي، بإسناده إلى ابن عباس، في قول الله عز وجل: ﴿لإيلاف قُرَيْشٍ﴾ إلفهم رحلة الشتاء والصيف، وذلك أن قريشًا كانوا إذا أصابت واحدا منهم مخمصة [٣]، جرى هو وعياله إلى موضع معروف، فضربوا على أنفسهم خباءً فماتوا؛ حتى كان عمرو بن عبد مناف، وكان سيدًا في زمانه، وله ابن يقال له أسد، وكان له ترب [٤] من بني مخزوم، يحبه ويلعب معه، فقال له: نحن غدا نعتفد، قال ابن فارس: هذه لفظة في هذا الخبر لا أدري: بالدال هي أم بالراء؛ فإن كانت بالراء فلعلها من العفر، وهو التراب، وإن كان بالدال، فما أدري معناها، وتأويله على ما أظنه: ذهابهم إلى ذلك الخباء، وموتهم واحدا بعد واحد، قال: فدخل أسد على أمه يبكي، وذكر ما قاله تربه، قال: فأرسلت أم أسد إلى أولئك بشحم ودقيق، فعاشوا به أياما، ثم إن تربه أتاه أيضا فقال: نحن غدا نعتفد، فدخل أسد على أبيه يبكي، وخبره خبر تربه، فاشتد ذلك على عمرو بن عبد مناف، فقام خطيبًا في قريش وكانوا يطيعون أمره، فقال: إنكم أحدثتم حدثا تقلون فيه وتكثر العرب، وتذلون وتعز العرب، وأنتم أهل حرم الله جل وعز، وأشرف ولد آدم، والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفاد يأتي عليكم، فقالوا: نحن لك تبع، قال: ابتدئوا بهذا الرجل - يعني أبا ترب أسد - فأغنوه عن الاعتفاد، ففعلوا، ثم إنه نحر البدن، وذبح الكباش والمعز، ثم هشم الثريد، وأطعم الناس؛ فسمي هاشمًا، وفيه قال الشاعر:

عمرو الذي هَشَّمَ الثَّريد لقومه ورجالُ مكةَ مسنتونَ عجافُ

ثم جمع كل بني أبٍ على رحلتين: في الشتاء إلى اليمن، وفي الصيف إلى الشام للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير، حتى صار فقيرهم كغنيهم؛ فجاء الإسلام وهم على هذا، فلم يكن في العرب بنو أبٍ أكثر مالاً ولا أعز من قريش، وهو قول شاعرهم:

والخالطون فَقيرهم بغنيهم حتى يصيرَ فَقيرُهُم كالكَافي

فلم يزالوا كذلك حتى بعث الله رسوله محمدا ﷺ، فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أن تكثر العرب ويقلوا.

قوله تعالى: ﴿رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ﴿رِحْلَةَ﴾ نصب بالمصدر؛ أي: ارتحالهم رحلة؛ أو بوقوع ﴿إِيلَافِهِمْ﴾ عليه، أو على الظرف، ولو جعلتها في محل الرفع، على معنى هما رحلة الشتاء والصيف، لجاز، والأول أولى، والرحلة الارتحال، وكانت إحدى الرحلتين إلى اليمن في الشتاء،

---

(١) الإجارة: الحماية ـ والخُفارة: الحراسة. اللسان «خفر».

(٢) الحمولة: كل ما احتمل عليه الحي من بعير أو حمار أو غير ذلك ـ اللسان «حمل».

(٣) المخمصة: المجاعة. اللسان «خمص».

(٤) الترب: المثيل، ومن يقاربه في السن اللسان «ترب».

لأنها بلاد حـامية، والرحلة الأخرى في الصـيف إلى الشام، لأنها بلاد باردة، وعن ابن عبـاس أيضا قال: كـانوا يشتون بمكة لدفئـها، ويصيـفون بالطائف لهوائها، وهذه مـن أجل النعم أن يكون للقوم ناحيـة حر تدفع عنهـم برد الشتاء، وناحـية برد تدفع عنـهم حر الصيف؛ فـذكرهم الله تعـالى هذه النعمة، وقال الشاعر:

تَشتي بمكةَ نعمةً ومَصيفها بالطَّائفِ

وهنا أربع مسائل:

الأولى: اختار القـاضي أبو بكر بن العربي [١] وغيره من العلمـاء: أن قوله تعالى: ﴿لإيلاف﴾ متعلق بما قبله، ولا يجوز أن يكون متـعلقا بما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ قال: وإذا ثبت أنه متـعلق بالسورة الأخرى - وقد قطع عنه بكلام مـبتدأ، واستـئناف بيان وسطر «بسم الله الرحمن الرحـيم»، فقـد تبين جواز الوقف في القراءة لـلقراء قبل تمام الكلام، وليـست المواقف التي ينتزع بها القـراء شرعا عن النبي ﷺ مرويا، وإنما أرادوا به تعليم الطلبة المعاني، فـإذا علموها وقفوا حيث شاؤوا، فأما الوقف عند انقطاع النفس فلا خلاف فيه، ولا تعد ما قبله إذا اعتراك ذلك، ولكن ابدأ من حيث وقف بك نفسك، هذا رأيي فيه، ولا دليل على ما قالوه، بحال، ولكني أعتمد الوقف على التمام، كراهية الخروج عنهم.

قلت: ومن الدليل على صـحـة هذا، قـراءة النبي ﷺ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم يقف، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ثم يقف، وقد مـضى في مقدمـة الكتاب، وأجمع المسلمـون أن الوقف عند قوله: ﴿كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥] ليس بقبيح، وكيف يقال إنه قبيح وهذه السورة تقرأ في الركعة الأولى والتي بعدها في الركعة الثانية، فيتخللها مع قطع القراءة أركان؟ وليس أحد من العلماء يكره ذلك، وما كانت العلة فيه إلا أن قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ انتهاء آية، فالقياس على ذلك: ألا يمتنع الوقف عند أعجاز الآيات سواء كان الكلام يتم، والغرض ينـتهي، أو لا يتم، ولا ينتهي، وأيضا فإن الفواصل حلية وزينة للكلام المنظوم، ولولاهـا لم يتبين المنظوم من المنثور، ولا خفـاء أن الكلام المنظوم أحسن؛ فثـبت بذلك أن الفواصل من مـحاسن الكلام المنظوم، فمن أظهـر فواصله بالوقـوف عليها فـقد أبدى محاسنه، وتركه الوقوف يخفي تلك المحاسن، ويشبه المنثور بالمنظوم، وذلك إخلال بحق المقروء.

الثانية: قـال مالك: الشـتـاء نصف السنة، والصـيف نصفـهـا، ولم أزل أرى ربيعـة بن أبي عبدالرحمن ومن معه لا يخلعون عمـائمهم حتى تطلع الثريا، وهو يوم التاسع عشر من بشنس، وهو يوم خمـسة وعشرين من عـدد الروم أو الفرس، وأراد بطلوع الثريا أن يـخرج السعاة، ويسـير الناس بمواشيهم إلى مياههم، وأن طلوع الثريا أول الصيف ودبر الشـتاء، وهذا مما لا خلاف فيه بين أصحابه عنه، وقـال عنه أشهب وحـده: إذا سقطت الهـقعـة [٢] نقص الليل، فلمـا جعل طلوع الثـريا أول

(١) أحكام القرآن (٤/ ١٩٨١) لابن العربي المالكي.

(٢) الهقعة: ثلاثة كـواكب نيِّرة قريب بعضها من بعض فوق منكب الجوزاء، وقـيل: هي رأس الجوزاء كأنها أثافي وهي منزل من منازل القمر اللسان «هقع».

قلت: رسمها في السماء هكذا - على شكل الأثافي - يعني: الحجارة التي حول النار.

الصيف، وجب أن يكون له في مطلق السنة ستة أشهر، ثم يستقبل الشتاء من بعد ذهاب الصيف ستة أشهر، وقد سئل محمد بن عبدالحكم عمن حلف ألا يكلم أمرأ حتى يدخل الشتاء؟ فقال: لا يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من هاتور، ولو قال يدخل الصيف، لم يكلمه حتى يمضي سبعة عشر من بشنس، قال القرظي: أما ذكر هذا عن محمد في بشنس، فهو سهو، إنما هو تسعة عشر من بشنس، لأنك إذ حسبت المنازل على ما هي عليه، من ثلاث عشرة ليلة كل منزلة، علمت أن ما بين تسع عشرة من هاتور لا تنقضي منازله إلا بدخول تسع عشرة من بشنس [١]، والله أعلم.

الثالثة: قال قوم: الزمان أربعة أقسام: شتاء، وربيع، وصيف، وخريف، وقال قوم: هو شتاء، وصيف، وقيظ، وخريف، والذي قاله مالك أصح؛ لأن قسمة الله للزمان قسمين ولم يجعل لهما ثالثا.

الرابعة: لما امتن الله تعالى على قريش برحلتين، شتاءً وصيفًا، على ما تقدم، كان فيه دليل على جواز تصرف الرجل في الزمانين بين محلين، يكون حالهما في كل زمان أنعم من الآخر؛ كالجلوس في المجلس البحري في الصيف، وفي القبلي في الشتاء، وفي اتخاذ البادهنجات [٢] والخيش للتبريد، واللبد واليانوسة للدفء.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝﴾

أمرهم الله تعالى بعبادته وتوحيده، لأجل إيلافهم رحلتين، ودخلت الفاء لأجل ما في الكلام من معنى الشرط، لأن المعنى: إما لا فليعبدوه لإيلافهم؛ على معنى أن نعم الله تعالى عليهم لا تحصى، فإن لم يعبدوه لسائر نعمه، فليعبدوه لشأن هذه الواحدة، التي هي نعمة ظاهرة، والبيت: الكعبة، وفي تعريف نفسه لهم بأنه رب هذا البيت وجهان: أحدهما: لأنه كانت لهم أوثان فيميز نفسه عنها. الثاني: لأنهم بالبيت شرفوا على سائر العرب، فذكر لهم ذلك، تذكيرا لنعمته، وقيل: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: ليألفوا عبادة رب الكعبة، كما كانوا يألفون الرحلتين، قال عكرمة: كانت قريش قد ألفوا رحلة إلى بصرى ورحلة إلى اليمن، فقيل لهم: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي: يقيموا بمكة، رحلة الشتاء، إلى اليمن، والصيف: إلى الشام.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝﴾

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي: بعد جوع، ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ قال ابن عباس: وذلك بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦]، وقال ابن زيد: كانت العرب يغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها من بعض، فأمنت قريش من ذلك لمكان الحرم وقرأ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [القصص: ٥٧]، وقيل: شق

---

(١) بشنس، وهاتور من أسماء شهور السنة عند أقباط مصر.

(٢) **البادهنجات**: كما في هامش المطبوعة: جمع (بادهنج) وهي لفظة معربة: بادخون، أو بادكير، منفذ في سقف البيت يدخل منه الهواء.

عليهم السفر في الشتاء والصيف، فألقى الله في قلوب الحبشة أن يحملوا إليهم طعاما في السفن، فحملوه؛ فخافت قريش منهم، وظنوا أنهم قدموا لحربهم، فخرجوا إليهم متحرزين، فإذا هم قد جلبوا إليهم الطعام، وأعانوهم بالأقوات؛ فكان أهل مكة يخرجون إلى جدة بالإبل والحمر، فيشترون الطعام، على مسيرة ليلتين، وقيل: هذا الإطعام هو أنهم لما كذبوا النبي ﷺ دعا عليهم، فقال: «اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [(١)] فاشتد القحط، فقالوا: يا محمد ادع الله لنا فإنا مؤمنون، فدعا فأخصبت تبالة وجرش من بلاد اليمين؛ فحملوا الطعام إلى مكة، وأخصب أهلها، وقال الضحاك والربيع وشريك وسفيان: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: من خوف الجذام، لا يصيبهم ببلدهم الجذام [(٢)]، وقال الأعمش: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أي: من خوف الحبشة مع الفيل، وقال علي رضي الله عنه: ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أن تكون الخلافة إلاّ فيهم [(٣)]، وقيل: أي: كفاهم أخذ الإيلاف من الملوك. فالله أعلم، واللفظ يعم.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٨٢١) في التفسير، ومسلم (٢٧٩٨/ ٤١) في صفات المنافقين عن ابن مسعود رضى الله عنه، وعن أمه.

(٢) أسانيد صحاح إلى أصحابها: الطبري (٣٠/ ٣٤٠) في تفسيره.

(٣) لا أصل له: وقول الأعمش عند ابن أبي حاتم (١٢/ ٤٥٧) في تفسيره.

قلت: والأصح: الأمن من كل خوف، فحباهم ربنا سبحانه بصحراء واسعة لا يقتحمها جيش فارس أو الروم، وبارك لهم في الطعام فحماهم من الجوع بدعوة إبراهيم عليه السلام، وأمنهم من الخوف في الحرم فلا تغير عليهم عرب أو حبش.